الفصل العاشر

الوصف فى الأندلس

ابن شهيد — ابن هانئ — ابن زيدون — ابن حمديس — ابن خفاجة

انتقل العرب إلى الأندلس فوجدوا فى القطر الجديد طبيعة مشرقة جميلة ، تشبه القطر الذى قدموا منه فى اعتدال الهواء وطيب الإقليم ، فقد قال القدماء إن الأندلس كالشام فى هوائها واليمن فى اعتدالها ، فعاشوا فيه كما عاشوا فى بلادهم الأولى ؛ وكان يذكرهم بأوطانهم فيتملكهم الشوق والحنين ، ولذلك كثرت الشكوى أول الأمر عند شعرائهم ، فوصفوا الفراق والجوى ، وظلوا كذلك حتى كان القرن الخامس الهجرى فضعف هذا الشعور بعض الشىء ، وأصبح الشعراء يتكلمون باسم البيئة والجو ، فنظروا نظرة جديدة مختلفة إلى طبيعة البلاد الأندلسية ؛ ولذلك كانوا فئتين فئة تعيش مع المشرقيين فى المعانى والألفاظ ، وفئة تشق طريقها إلى معان طريفة فيها كثير من التجديد وسنعرض هنا أهم أعلامها .

وقد عاشت الفئة الأولى مع المشرقيين ، فجعلت فى شعرها غريب اللفظ وقديم الصور وجمعت من أشعار الجاهليين كامرئ القيس وزهير وعنترة معانيها وأوصافها ؛ وأحسن من يمثل هذه الفئة هو ابن شهيد ، فقد وصف البادية والأطلال والخمر والنجوم والليل ، ثم رسم الورد كالخدود حين تخجل والشقيق تشكو صفحاته من لطم اللاطم ، فاتخذ صوراً من العباسيين فيها البرق يضحك والثريا تمايل أيديها بخواتم مذهّبة ، والشمس تنظر بعين رمداء ليس فيها قذى .

ولعله أتقن فنون البلاغة فسار فى شعابها ومسالكها كما قال فيه الفتح بن خاقان ، وبذلك أعجب المشرقيين إذ قلّدهم وجاراهم .

وابن هانئ وجد كذلك مثله العليا عند الجاهليين والأمويين وبعض المحدثين كأبى تمام وأبى نواس والمتنبى ، ولذلك قرنوه بمتنبى المشرق ، وكثير من شعره يقع فى البادية والصحراء ، ويصوّر الظعن والأطلال والآل ، وبعضه يلمّ بالبرق وغناء الحمائم والمدامة ، على أساليب المشرقيين ، فيسقى السلافة معتقة كلون الجلنار ، ويركض نجم الليل كأنّ الليل يطلبه بثأر ، ويرسم الورد والنرجس فى صفرة وحمرة كما يرسمها العباسيون ، وتجد عنده رسوماً للسها وبنات نعش .

هذه هى الصورة التى عاشت قبل القرن الخامس الهجرىّ ، فلما كان هذا القرن اكتملت الحضارة فى الأندلس وانقطعت صلة الشعب بالبداوة وبيئتها ، فعاشوا فى القصور والحدائق والبساتين قرب الأنهار والبرك والأحواض يتراقص الزهر والنَّوْر لأعينهم وتداعب الموسيقا آذانهم ، فكأنهم فى قطر غربىّ بعيد كل البعد عن المشرق فى طريقة العيش وفى أسلوب النظر إلى الطبيعة .

وقد كانت تهبّ عليهم نسمات العصر الحمدانى وما كان لشعرائه من تجديد ، فقاموا لوصف بلادهم ومدنهم فتعصبوا لها وغدا كلّ من الشعراء يتغنى ببلده أو واديه ، فابن زيدون راح يشيد بقرطبة ، وابن سفر المرينى بأشبيلية ، وترنم غيرهما ببلنسية ، حتى كان فى وصف المدن والربوع كتاب ضخم يغصّ بالشعر ، وكتاب نفح الطيب للمقرى خير شاهد على هذا .

ونستطيع أن نقرأ هذا الشعر الذى يمثل وصف الأنهار والبساتين والغدران والمدن ، وأن نرجع إلى هذه القصائد التى وصفوا بها البحر ، فقد فتن الأندلسيون به وهاموا بحبّه وركبوه ، وخلّفوا فيه شعراً كثيراً يرسم الأساطيل والسفن ، فاخترعوا معانى كثيرة فى هذه الأوصاف ، ولكنك تقع بينها على بعض معانى العباسيين مما لم يكن منه بد .

وابن زيدون وصف الطبيعة كذلك فأعارها حبّه لولاّدة وحسّه فى القرب منها أو الشوق إليها ، فخاطب الريح والسحب والزهر والمواطن والمرابع ، ورجاها أن تنقل إلى حسنائه آية حبّه ورسالة هواه ، وهو فى هذه الأوصاف شبيه بالرومانتيكيين الذين يرون فى الطبيعة أصدقاء يشفقون على بلواهم ، ويجدون فى النهر والجبل والبحيرة والشجر شواهد على حبهم تعطف على وجدهم وتبكى لأساهم ، فكلّ ما فى الكون يحسّ بحبهم ويشهد على آلامهم وأحزانهم ، فكأن الدنيا قد لبست لهم ثياب الحداد واكتستْ بالحزن . وهو على هذه الأوصاف أخذ من بعض معانى المشرقيين وتعلّق بصور البحترى فلقب ببحترى المغرب .

وابن حمديس ولد فى صقلية ، وهى فاتنة ، وانتقل إلى الأندلس وأفريقية فاتصل بالقفار والصحارى فوقع حيناً على معانى القدماء من وصف الأطلال والديار وآثار الأحبة ، وسخر منها حيناً آخر كما فعل أبو نواس ، وتطرق إلى أوصاف البرق والصيد والفرس ، فلاذ بأسباب المشرقيين وتعلق بنجد وغيرها ، وهتف كابن الدمينة ووصف الخمر كأبى نواس ، فسكر للغمام والطير والشروق والغروب والنسيم الرقيق والسحب المظلمة ورسم الغصن بالتثنى سكران بالندى والشمس تجرى كالذهب ، وذكر غرة الصبح وطلل الحمى . ولكنه على هذا التقليد كان يرمى إلى معان طريفة يحاول أن يشق طريقه بها إلى الجديد فيقول :

وراءك يا بحـــر لى جنـــة ... لبست النعيم بهـــا لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحاً ... تعرضت من دونها لى مســـاء
فلو أننى كنت أعطى المنى ... إذا منع البحـــر منها اللقـــاء
ركبت الهلال به زورقـــاً ... إلى أن أعانق فيهـــا ذُكـــاء

وهى أبيات جميلة تبين عن وصف جديد للطبيعة ومعان مستحدثة ، فهو يتمنى أن يُعطى المنى ليركب الهلال كزورق فيبلغ الربع .

وابن خفاجة ، عاش للفنّ ، وابتعد عن السياسة ، وكان سعيداً بمقامه

وديارة يفضل الأندلس على الدنيا كلها ، ويرى فيها جنة الخلد ، ولو خيّر بلداً لاختارها ، فأقبل على الرياض واتصل بالبساتين وتعلق بمباهج الطبيعة فرآها كعروس ، ووصفها فى صور جميلة وتعابير رقيقة تدل على تجديد فى اللفظ والمعنى قال :

فى أبطح رضعتْ ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا درر الندى ودراهم النوّار

فالأقاحى لها ثغور ترضع أخلاف الغمام ، ويد الصبا نثرت الندى كالدرر والنوّار كالدراهم ، وهو يساجل الغمام ويطارح الحمام ويناجى الديار ، وقد عاثت فيها الظبى ومحا البلى محاسنها ، وصوّر الخمر وشربها من كف أحوى أحور ، فشرب معه الثرى وتغنى الهزار وصفّق الماء ، وقد فعل شاعرنا كما فعل العباسيُّون فى اختيار الغيم والثلج والمطر لأوقات شربه ، فوصف الشمس سقيمة صفراء واستمع إلى لحون الطرب والمغنين وغناء الطير وحفيف الشجر وتمايل النور ، ونظر إلى الأغصان تتمايل من طرب ، وقد افتر ثغر الهلال عن سرور .

وصورة الفرس عند ابن خفاجة تستعير من الروض كذلك فتجعل خده من الجلنار وأذنه من ورق الآس ، ورسم الليل كزنجىّ فى سواده والنجم كدينار ، وصورة الذئب فى ديوانه تستعير من النجوم والكواكب قسماتها وألوانها ، وكذلك وصف الطير والكلب ، فهو بستانى يعيش بين الشجر والزهر فيغمس ريشته فى ألوانها ثم يشبه كل ما يرى بها .

ووصف ابن خفاجة ما وصفه العباسيون من أشخاص وأشياء ، وزاد فرسم صورة للأحدب تختلف عن صورة ابن الرومى . ووصف الأسد والنارنج والنار ، والأرنب والشراب ، واستعمل كزملائه صور المشرقيين حيناً وابتكر أحياناً ، فهو يصف النهر ويبدع فى تجديده حين يقول :

لله نهر سال فى بطحاء أشهى ورود من لمى الحسناء

متعطف مثـــل السوار كأنه والزهر يكنفه مجـــرّ سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة فى بـــردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحفّ بمقلـــة زرقاء

فالماء أشهى من لمى الحسناء ، وتعطّف النهر كالسوار ، ورقته كقرص من فضة فى بردة خضراء ، والغصون تحفّ به كما تحيط الهدب بالمقلة الزرقاء ، وهذه فى جملتها أوصاف طرقها العباسيون ، ولكن تجديده كان فى عرض الصور بألفاظ جديدة واستعارات تصويرية فيها فتنة وسحر تشبه الأرض التى عاش عليها ، فهو جنّان قضى حياته فى جنة الأندلس وخرج فى أوصافها بصور جنائنية لا تجدها عند غيره .

وهكذا رأينا أن الشعراء فى الأندلس أفاقوا فى القرن الخامس الهجرى على صيحة التجديد فى التعبير والتصوير ، ولكن الزمن لم يتح للعرب أن يسيروا طويلا فى الطريق الجديدة فقد أخرجهم الأسبانيون من هذا الفردوس ، وقد كان أمل القومية العربية وأمل الوصف فى الأدب العربىّ ، فخبا النور الذى سطع خلال هذه القرون ، وجاءت عصور الانحطاط ، وبسط العثمانيون ظلّهم الثقيل على الأدب العربىّ فنام نومة طويلة ، ولم توقظه إلا نفحة من ديار الغرب هزّت كيانه هزا فى الشام ومصر ، فتحرك لإحياء القديم أولا ثم نشط للإبداع والاختراع .